التربية الإجتماعية فى القرآن الكريم

للأستاذ حسن كامل الملطاوى

وكيل وزارة الخزانة ورئيس مجلس إدارة مسجد الإمام الحسين

— ٣ —

وفضلا عن أن الرسول المعصوم صلوات الله عليه أعدل البشر على الإطلاق فإنه أبيح له ما لم يبح لغيره بخوطب من ربه :

«ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلاجناح عليك ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن والله يعلم ما فى قلوبكم وكان الله عليما حليما» .

وأراد الله بذلك أن يطمئن نفوس أمهات المؤمنين لأنهن إذا علمن أن هذا التفويض معطى من الله تعالى لرسوله الكريم رضين بقسمته صلى الله عليه وسلم ولم تداخلهن غيرة الأزواج ، ومع ذلك التفويض الواسع كان صلوات الله عليه يخشى الله ويتقيه ويعدل فى القسمة بين أزواجه ويقول اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك ، يشير بذلك إلى ميله القلبى لسيدتنا عائشة رضى الله عنها .

هذا إلى أن نساءه صلى الله عليه وسلم قمن بمعاونته فى نشر الفضائل وكن القدوة الطيبة بين النساء بالمثل العليا التى التزمنها علمياً وعملياً امتثالا لقوله تعالى : « يانساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفاً ، وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ، واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفا خبيراً » .

بين الله لهن بتلك الآيات أنه تعالى إنما نهاهن وأمرهن ووعظهن ليحذر أهل بيت المصطفى صلى الله عليه وسلم من المآثم وليصدهم عنها بالتقوى الخليقة بهم رجالا ونساء واستعمار الله للذنوب الرجس وللتقوى الطهر .

وهذه القدوة الطيبة لها مغنمها ومغرمها :

« يانساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا ، ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقا كريما » .

ثم تعالوا نذكر فضلهن فى الإبلاغ عن سيد المرسلين مما بقى تراثا نافعا لنا فى الدين على مر السنين ، وأية بركة كانت لأم المؤمنين سيدتنا عائشة على الأخص فى نقل الحديث النبوى الشريف إلى الأمة المحمدية .

وكفى بهن شرفا رضوان الله عليهن أن يقول الله فيهن .

« يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا ، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما » .

وقد اخترن رضوان الله عليهن الله ورسوله والدار الآخرة ، وياله من شرف على هاماتهن فى الدنيا والآخرة . وقد روى أنه حين نزلت الآيتان المتقدمتان بدأ صلى الله عليه وسلم بالسيدة عائشة وكانت رضوان الله عليها أحبهن إلى قلبه الطاهر فخيرها وقرأ عليها ما نزل وقال لها إنى ذاكر لك أمرا ولا عليك أن تعجلى فيه حتى تستأمرى أبويك ، فقالت وهى الرشيدة الموفقة أفى هذا أستأمره أبوى ، فإنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة ، فرؤى الفرح فى وجهه صلى الله عليه وسلم وكذلك جاراها سائر أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن .

والناظر بدقة فى قوله تعالى .

« لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شىء رقيبا » .

يخرج منه بأن زواجه صلى الله عليه وسلم لم يكن لأغراض شهوانيه وحاشاه وهو الذى نفخ فى الأرواح بإذن الله فأحياها من مواتها ووصلها بالملأ الأعلى الذى هبطت منه وتعود إليه عند انتهاء الأجل .

وجدير بالتنويه أن حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم رفض بشدة أن يتزوج الإمام على زوجة أخرى مع سيدتنا فاطمة الزهراء وإليكم الحديث الشريف الذى جاء فى هذا الشأن والوارد فى الصحاح .

عن المسور بن مخرمة رضى الله عنه أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم على المنبر وهو يقول : إن بنى هشام بن المغيرة استأذنونى أن ينكحوا ابنتهم على بن أبى طالب فلا آذن لهم ثم لا يجب ابن أبى طالب أن يطلق ابنتى وينكح ابنتهم ، فإنما ابنتى بضعة منى يريبنى ما رابها ويؤذينى ما آذاها ، رواه الخمسة .

وكفاه دليلا ساطعا على أن حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم لا يشجع تعدد الزواج مع حله ، كما أنه دليل على أن تعدد زواجه صلى الله عليه وسلم لم يكن لأغراض شخصية بل لأغراض دينية تسمر فوق كل اعتبار وما يعقل ذلك إلا العالمون .

رعاية الأولاد والعدل بينهم :

والأولاد أمانة فى أعناق آبائهم وأمهاتهم ويجب على الوالدين رعاية أولادهم فى عقائدهم وأخلاقهم كما يجب عليهم العدل بينهم وعدم التمييز بحجج لا يرضاها الله ورسوله .

فأما عن العقيدة ، فانظروا إلى عناية سيدنا يعقوب بها وهو على فراش الموت :

« أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلها واحداً ونحن له مسلمون » .

وتأملوا فيما نصح به لقمان ابنه :

« وإذا قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ، ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير ، وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ، يا بنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى

الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير ، يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ، ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور ، واقصد فى مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » .

أما عن العدل فما أوضح قوله تعالى :

« يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس فإن كان له إخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصى بها أو دين آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا فريضة من الله إن الله كان عليما حكيما » .

والمتأمل فى الآية الكريمة يرى أنها جعلت نصيب الأنثى أساسيا ونصيب الذكر مقيسا عليه ، ولم يقل الله للأنثى وهى بلاغة إلهية تعلم الناس أن يخافوا الله فى حقوق أولادهم وخاصة أولئك الذين يحرمون البنات من الميراث وهم أحياء ، أو يقللون نصيبهم بحجة أنهن متزوجات بغرباء عنهم وأن الذكور من أحفادهم أولى لأنهم أبناء البطون وهذا والله هو الظلم بعينه ونسأل الله أن يجيرنا منه ومن تبعاته .

ولو أنكم وقفتم قليلا عند قوله تعالى :

« آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا فريضة من الله إن الله كان عليما حكيما » .

تبين لكم أن قسمة الله العليم الحكيم أولى بالاتباع من قسمة الأهواء الشخصية ويؤكد ذلك المعنى قوله تعالى « فريضة من الله » وليس لأحد أن يخالف ما فرضه لله .

وفى هذه المناسبة أذكر أن رجلا جاء إلى شيخنا العارف بالله سيدى الشيخ أبو خليل قطب عصره وساكن ضريحه الأنور بالزقازيق ، فقال أريد أن أميز ابنى فلانا على أخواته بكذا وكذا ، فسكت الشيخ رضى الله عنه ولم يجبه ، وطال سكوته فقال له أحد الجالسين إن السائل ينتظر من شيخنا الجواب ، فقال له وأى جواب ينتظره منى إذا كان تقسيم الله لا يعجبه ، فهل يعجبه تقسيم أبو خليل فعدل الرجل عن عزمه وتاب إلى الله .

معاملة الاخوة :

ولما كان الإخوة هم فروع الشجرة فى الأسرة وينتمون لأصل واحد فإن التسامح بينهم واجب مهما وقع بينهم من أسباب الخلاف .

وما أرق سيدنا يوسف الصديق عليه السلام فى موقفه من إخوته وقد عاملوه قاسية كادت تودى بحياته لو لم تدركه عناية الله أقول ماأرقه وقد عرفوه حاكما لمصر آخر الأمر وقالوا له ماحكاه الله فى قوله تعالى .

« فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزى المتصدقين ، قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ، قالو أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ، قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين ، قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » .

ومعنى لا تثريب عليكم أى لا أعيركم بما كان منكم ، وقد استعمل هذه الكلمة الطيبة أبو سفيان حين جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم ليسلم حيث قال له العباس رضى الله عنه إذا أتيت رسول الله فاتل عليه « لا تثريب عليكم اليوم » ففعل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم غفر الله لك ولمن علمك .

وما أوصل سيدنا موسى عليه السلام للرحم حين يدعو ربه .

« واجعل لى وزيرا من أهلى ، هارون أخى ، اشدد به أزرى ، وأشركه فى أمرى ، كى نسبحك كثيرا ، ونذكرك كثيرا ، إنك كنت بنا بصيرا ، قال قد أوتيت سؤلك يا موسى » .

وما ألين جانب سيدنا هارون عليه السلام حين أخذ برأسه سيدنا موسى وهو غاضب لله إذ رأى قومه كفروا به :

« يابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى » .

فهلا يفيد الإخوة فى هذا الزمان من ذلك القصص البديع فيأتلفون ولا يختلفون ويتسامحون ولا يتباغضون .

الصوفى الصادق

- سئل ذو النون عن الصوفى الصادق فقال : هو الذى لا يسكن إلى شىء وإليه يسكن كل شىء .
- وسئل أبو عبد الله المغربى عن الصوفى الصادق فقال : هو الذى يملك كل شىء ولا يملكه شىء .
- وسئل أبو الحارث الأولاسى عن الصوفى الصادق فقال :هو الذى لا يأنس بشىء ويأنس به كل شىء .
- وسئل يوسف بن الحسين عن الصوفى الصادق فقال : من آثر وقته ، فإن كان فيه تطلع إلى وقت ثان لم يستحق اسم الصوفى .
- وسئل الحسين بن منصور الحلاج عن الصوفى الصادق فقال : الذى لا يختار بصحة الرضا ، مايرد عليه من الأسباب .
- وسئل النورى عن الصوفى الصادق فقال هو الذى لا يتهم الله تعالى فى الأسباب ، ويسكن إليه فى كل حال .
- وسئل ممنون عن الصوفى الصادق فقال : الذى يأنس بالمفقود كما يأنس الجاهل بالموجود ، ويستوحش بالموجود كما يستوحش الجاهل بالمفقود .
- وسئل أبو حفص النيسابورى عن الصوفى الصادق فقال:الذى يكون مع كل وقت بحكمه فإذا ورد عليه وارد يخرجه عن حكم وقته ويستوحش منه .
- وسئل الجنيد عن الصوفى الصادق فقال : هو أن لا يستغنى بشىء ، ويستغنى به كل شىء .